۱۶۵۱۶

مجله	حضارة الاسلام
تاریخ نشر	۶ رجب ۱۳۹۸
شماره	۴ - ۵ سال نوزدهم
شماره مسلسل	
محل نشر	دمشق
زبان	عربی
نویسنده	محمد علی سوزه
تعداد صفحات	۱۱۸ - ۱۳۱
موضوع	سنریهم آیاتنا فی الافاق
سرفصلها	آیات آفاقی و انفسی قرآن
کیفیت	
ملاحظات	

سنريهم آياتنا في الآفاق

للاستاذ محمد علي موزة

ليس صدفة ان تكون اول آيات نزلت من القرآن الكريم قول الله تبارك وتعالى « **اقرا بسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرا وربك الاكرم . الذي علم بالقلم . علم الانسان مالم يعلم .** »

فهذه الآيات الكريمة على قصرها ، وقلة عددها تلخص نشاة الانسان ، وعلاقته بخالق هذا الكون وخالقه ، وتبين للانسان غاية وجوده ، والدور الذي أوكل اليه ، فهو مخلوق لخالق السماوات والارض ، الذي احسن كل شيء خلقه ثم هدى . خلقه من العدم ، ثم من علق ، من ضعف متناه في الضآلة والعجز . ولكن هذا الضعف مايلبث ان يقوى ، وهذه الضآلة ماتلبث ان تكبر وتبين ، وتظهر آثارها في هذا الحيز الضئيل من الكون ، في الارض ، فاذا به مخلوق سوي ذو عقل نير ثاقب ، وقوة تستطيع ان تسخر كثيراً من ظواهر هذه الارض ، وتسخر لنفسها كل مافي الارض ، ظاهرها وباطنها ، جبالها وسهولها ، انهارها وبحارها ، وديانها ووهادها ونجادها ، رياحها وامطارها. (**سخر لكم مافي السموات ومافي الارض جميعا منه**) سورالجاثية/٥ (**هو الذي جعل لكم الارض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور**) سورةتبارك / ١٥

كل ذلك على شرط الله في استخلاف هذا الانسان ، وسننه التي يراها لنظام هذا الوجود بكل مافيه . والعلاقة بين الخالق القوي الذي لا حدود لقوته ، والمخلوق الانسان الضعيف الذي لا ينفك ضعفه يظهر في كل زمان وفي كل مكان مهما بدا انه يملك من اسباب العلم ، وتقدم الاختراع مايجعله سيدا مطاعا في كثير من المواقف والظروف ، هذه العلاقة قائمة على الكرم الرباني والرحمة الالهية ، وهي علاقة مباشرة لا توسط فيها لاحد (**واذا سالك عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة الداع اذا دعان**) سورة البقرة /١٨٥ (**وقال ربكم ادعوني استجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين**) سورة غافر/ ٦٠

وهي علاقة عبادة وطاعة خالصة تتجلى في كل حركة ، وتسكنة ، ماكان منها للدنيا ، وما كان للاخرة (**وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون**) سورة الذاريات / ٥٦

ولن تخلص هذه العلاقة من اثقال الشهوات ، وادران الحياة الا ان تكون صافية خالصة من الاكدار ، راضية بلا تمرد ، مقبله بلا تردد ، منطلقة بلا هوى ، مستعلية بلا هبوط .. ومدركة هذه الحقيقة ادراكا كاملا . حقيقة المصدر الذي صدر عنه الانسان ، وحقيقة الدور الذي اوكله الله تعالى اليه ، وجعله قادراً على القيام بتكاليفه ، في حدود ما هيأته له العناية الالهية من طاقة. (**لا يكلف الله نفسا الا وسعها**) سورة البقرة / ٢٨٦ رغم ضعفه الذي كان عليه اول نشاته ، وضعفه الذي يواجه به هذا الكون الهائل ، وعند ذلك تقوم الحياة البشرية على اساس رباني متين لا تنفصم عراه ، ولا تلعب به الاهواء ، ولا تعصف به النزوات ، ولا تستخفه المطامع ولا تستهويه المطامع والشهوات .

وليس عجيبا ان يكون لهذه الآيات كل هذا الوزن الهائل ، وكل هذه الأبعاد البعيدة ، التي تكاد ان تكون تلخيصا شاملا كاملا لمعنى الوجود الانساني فيهذه الارض ، ورسالته في الحياة ، وهذا جل ماتدور عليه دعوة القرآن الكريم رغم تعدد جوانبها ، وسعة آفاقها ، وسمو اهدافها .

فمن المسلم به ان الله تعالى : (**ربك الذي خلق**) هو الخلاق العليم ، الذي لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء . فالحكمة تسطع من كل آية ، ومن خلال كل سورة ، حتى ان طريقة القرآن الكريم هذه ، بما فيها من حكمة بالغة، وتناسق بديع ، وترابط وتناسق ، يجعلها مؤتلفة في اطارها العام بدقة اعجزت البشر ، رغم مايبدو للنظرة العجلى ، ان السورة الواحدة تختلف فيها المواضيع وتنتقل فيها الآيات على غير نظام ، بصورة لا يستطيع كثير من الناس ان يدركوا المرامي البعيدة لهذا الكلام الرباني البديع . ولكنها في الحقيقة طريقة تبلغ من الدقة والاتقان درجة عالية ، لا تقل — ان لم تزد — على دقة مافي هذا الكون من آيات باهرات ، يقف العقل البشري على عتبتها مشدوها ماخوذا ببديع الصنع ودقة الصانع .

هكذا يبدو القرآن الكريم لمن نظر فيه النظرة العميقة الواعية المتدبرة ، ويدرك المغزى البعيد من قول الله تعالى في تحدي الناس جميعا ، بل الجن ايضا على ان ياتوا بمثل هذا القرآن ، سورة ، او آيات قليلة ، ان كانوا في شك من ان هذا القرآن من عند رب العالمين ، ومن الجزم القاطع بانهم لن يفعلوا ذلك مهما حاولوا : (**وان كنتم في ريب مما انزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين . فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين**) سورة البقرة / ٢٤

وليس محض مصادفة ان يخاطب الانسان أول ما يخاطب بهذه الآيات التي تعد من دلائل الاعجاز في هذا القرآن ، وصدق مبلغه ، واستحالة ان يكون هذا الكلام من صياغة بشر .

وان النظرة المتدبرة في هذه الآيات الاولى نزولا تضعنا امام حقـــائق كثيرة اهمها :

١ ــ أن الله تبارك وتعالى هو خالق هذا الوجود كله ، وان هذا الوجود حادث ليس ازليا ولا ابديا ، وانه يسير في حركة ، دائبة نحو غاية مرسومة ، فالخلق ليس عشوائيا ، ولكن من ورائه القصد والارادة والتصميم : (**والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون**) سورة يس / ٣٨

٢ ــ ان الله تعالى خلق الانســان لغاية كريمة ، وهدف كبير ، ينظر بنور الله ، ويتعلم بفضل ما أودع فيه من عقل ونظر وقدرة على الاستنتاج والاستقراء ، فيتلقى عن الله عز وجل شعاع الهدى ليعرف مكانه من هذا الوجود : ووظيفته ، والغاية من حياته وارتباطاته بهذا الوجود .

يعرف كيف اتى ، ولماذا خلق ، والى أين ينتهي : وكيف ينبغي ان يسـير متجنبا العثار والسقوط ، ويتلقى عن الله عز وجل مبادىء النظر والتعامل مع سنن هذا الكون ، ونواميسه ، ولطائف الاشارات الدالة على بدائع خلق الله ، وعجائب صنعه ، ومن هذا الخلق ، خلق الانسان نفسه ، الذي ينطوي على قدر هائل من الاسرار والافكار .

والانسان هذا المخلوق الصغير يؤدي على الارض رسالة ، ويقوم في الحياة بدور عظيم . انها رسالة الحياة المبصرة ، التي تستطيع ان ترى نفسها وترى ما حولها على الصورة الواضحة ، والحجم الحقيقي الذي لا يعتريه تشويه ولا تحريف ولا تعديل في النسب الدقيقة التي تربط بين أجزاء هذا الكون ، ومخاليقه الكثيرة المتنوعة .

٣ ــ ان الطريقة التي خلق على نهجها الانسان طريقة فذة تدعو الى التفكر والتدبر الخاشع ، وهي طريقة عجيبة عجيبة ، لا يملك الانسان امامها الا ان يمتلىء قلبه ايمانا وتسليما ، سواء أعرف ذلك بالبداهة والفطرة الصافيـــة والبصيرة النيرة ، والقلب الواعي ، ــ وهذا حال أكثر المؤمنين قديما وحديثا ــ

ام عرفه في مجال التخصص العالم ، والدرس الواعي ، والكشف العميق ، أم على سبيل الاطلاع على ما وصـــل اليـــه العلم على يـــد العلماء المتخصصين والدارسين . وفي جميع هذه الاحوال تتضح امام الانسان معالم الطريق فيمشي في هذه الحياة على بصيرة ، ويسير في طريق مأمونة ، ويمتلك ناصية الحقيقة ، فاذا به يلبي نداء ربه ، ويوجه لله وجهه ويسلم له قلبه ويفوض اليه أمره . (**فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون**) سورة الروم / ٣٠

والآن نقف بعون الله عز وجل عند بعض الآيات التي تقص على الانسان سر خلقه من العدم ، ثم تنظر بعد ذلك وقد أثلج برد اليقين صدورنا ، هل يمكن ان يكون هذا كلام بشر ؟ وسوف نعجب كل العجب من اولئك الذين اتيح لهم قدر كبير من العلم الدقيق ، والمعرفة المتخصصة ، كيف يشرد كثير منهم مبعدين في ضلالهم ، كأنهم لم يطلعوا على شيء ، ولم يقراوا في كتاب الكون آية من الآيات الكثيرة ، التي تنطق بالحق ، وتشهد بالصدق لله ولكتابه ولرسوله عليه الصلاة والســـلام .

وكيف يكون هذا كلام بشر ، بالغة ما بلغت عبقريته وذكاؤه ومعرفته . ونحن نعلم ، والدنيا كلها تعلم ان محمدا عليه الصلاة والسلام كان اميا لا يقرا ، ولم يعرف عنه انه اتصل بأستاذ أو تعلم على اي عالم في عصره . ولو افترضنا جدلا انه كان قد تلقى علومه في ارقى جامعات الارض لعصره ، وعلى أفذاذ علماء زمانه ــ وهذا مالم يكن قطعا ــ فان ماتضمنه القرآن الكريم من اشارات علمية بحته ــ وما اكثرها في كتاب الله ــ لم يكن معروفا عند أحد في ذلك الزمان فضلا عن أن كثيرا من تلك الحقائق لم يكن بالامكان معرفتها إلا بعد مئات السنين ، واكثر ما عرف منها على سبيل العلم اليقيني في مائة السنة الاخيرة ، بينما ماتزال كثير من الحقائق غير معروفة الى يومنا هذا .

فهل يمكننا ان نجد تعليلا لهذه الحقائق الدامغة التي اشار القرآن الكريم اليها الا ان نقول : حاش لله ماهذا بكلام بشر ، والا ان نعترف بأن الله خالق هذا الوجود ، والعليم بكل شيء هو الذي خاطب النبي محمدا عليه الصلاة والسلام بهذا القرآن ، وخاطب به الانسانية جميعا حيث عاشت في أي زمان تنســمت نسمة الحياة .

ولسنا في سبيل تقصي هذه الحقائق الثابتة التي وردت في القرآن وتفصيل

القول فيها ، فذلك مالاتتسع له المجلدات الكثيرة الكثيرة ، ولكننا سنأخذ احدى هذه الحقائق الكثيرة لنرى من خلالها عظمة الخالق العليم ، ولنتبين حقيقة هذا الكائن العظيم الذي ينطوي في بنيته ونشأته على أسرار هائلة في كل جانب من جوانبه ، وما حقيقة نشأته الا واحدة من حقائق ينطوي عليها هذا الجرم الصغير في حجمه الكبير في اسراره . **(ولقد علمتم النشاة الاولى فلولا تذكرون)** سورة الواقعة / ٦٢

ولنبدأ بايراد بعض الآيات التي تتحدث عن خلق الانسان ، لتصبح آفاق الرؤية أمامنا اشمل واوسع واقرب الى الوضوح والدقة .

١ ــ (اولم ير الذين كفروا ان السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي افلا يؤمنون) سورة الانبياء / ٣٠ .

٢ ــ (فلينظر الانسان مم خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب) سورة الطارق / ٥ .

٣ ــ (اولم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم . قل يحييها الذي انشاها اول مرة وهو بكل خلق عليم .) سورة يس / ٧٧ ــ ٧٩ .

٤ ــ (هل اتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا . انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا) . سورة الدهر / ١ ــ ٢

٥ ــ (ايحسب الانسان ان يترك سدى . الم يك نطفة من مني يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والانثى . اليس ذلك بقادر على ان يحيي الموتى) . سورة القيامة / ٣٦ ــ ٤٠ .

٦ ــ (قتل الانسان ما اكفره . من اي شيء خلقه . من نطفة خلقه فقدره . ثم السبيل يسره . ثم اماته فاقبره .) سورة عبس / ١٧ ــ ٢٢ .

٧ ــ (نحن خلقناكم فلولا تصدقون . افرايتم ماتمنون . انتم تخلقونه ام نحن الخالقون) . سورة الواقعة / ٥٧ ــ ٥٩ .

٨ ــ (ويقول الانسان اإذا مامت لسوف ابعث حيا . او لا يذكر الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئا .) سورة مريم / ٦٦ ــ ٦٧ .

٩ ــ (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة . فخلقنا العلقة مضغة . فخلقنا المضغة عظاما . فكسونا العظام لحما ثم انشاناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) . سورة المؤمنون / ١٢ ــ ١٥ .

١٠ ــ (يا ايها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الارحام مانشاء الى اجل مسمى ثم نخرجكم طفلا .) سورة الحج / ٥ .

١١ ــ (والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم ازواجا) سورة فاطر / ٣٥ .

١٢ ــ (وهو الذي مد الارض وجعل فيها رواسي وانهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين .) سورة الرعد/١٣ .

١٣ ــ (وانه خلق الزوجين الذكر والانثى . من نطفة اذا تمنى) سورة النجم / ٤٥ ــ ٤٦ .

١٤ ــ (يا ايها الانسان ماغرك بربك الكريم . الذي خلقك فسواك فعدلك. في اي صورة ماشاء ركبك .) سورة الانفطار / ٦ ــ ٨ .

١٥ ــ (الم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه في قرار مكين . الى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون .) سورة المرسلات / ٢٠ ــ ٢٣

١٦ ــ الذي احسن كل شيء خلقه وبدا خلق الانسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ماتشكرون .) سورة السجدة / ٧ ــ ٩

١٧ ــ (يخلقكم في بطون امهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا اله الا هو فانى تصرفون .) سورة الزمر / ٦

ومع ان معظم هذه الآيات تشترك في تبيان حقيقة واحدة هي ان الانسان خلق من الماء المعروف الا ان بعضها تضيف تفصيلات علمية على درجة بالغة من الاهمية ، فالآية الثانية تضيف الى ذلك حقيقة هامة وهي ان هذا الماء لا قيمة له اذا لم يلتق بالخلية الانثوية التي تتولد في مبيض المراة . (يخرج من بين الصلب والترائب) .

والآية الرابعة تبين ان هذا الماء يتالف من اخلاط ذات اسرار هامة (انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج) .

وفي الآية التاسعة نتبين مراحل الخلق وتطوره من نطفة الى علقة الى مضغة ...

وفي الآية العاشرة نتبين ان بعض خلايا النشاة الاولى مهياة للنمو المباشر في حياة الانسان بينما يقوم بعضها بتوفير الغذاء والحفظ والوقاية وتسمى الاولى خلايا مخلقة والثانية غير مخلقة . وتبين هذه الآية ايضا تفرد الله عز وجل في تعيين جنس المولود من ذكر او انثى دون ان يكون لاحد من المخاليق اي مجال للتدخل في ذلك ، وبذلك يوصد الباب امام هوى الانسان الذي ان افسح له مجال في هذا الامر فسدت الحياة فسادا اساسيا يؤدي الى انهيار الجنس وفنائه .

والآيتان الحادية عشرة والثالثة عشرة تشيران الى الاختلاف الكبير بين الذكورة والانوثة مع ان اصل النشاة واحد فهما جنسان متتامان **(ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)** سورة الروم / ٢١

وفي الآيتين الخامسة عشرة والسابعة عشرة اشارتان الى الرحم والعناية الربانية بهذا الجنين ، بحيث تتوفر له اسباب الراحة والحفظ من الصدمات ، واشارة الى ظلمات ثلاث ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة السلى ..

ومن استقراء هذه الآيات نستنتج هذه الحقائق العلمية :

١ ــ ان الماء اصل الحياة ، ويدخل بشكل رئيسي في تركيب كل كائن حي سواء كان انسانا ام حيوانا ام نباتا . فهذا الماء هو الذي يحتضن المواد الكيميائية الموجودة في الارض ويعين على حلها وحملها الى الجذور المبثوثة في التربة لتاخذ حاجتها من الغذاء ، وبذلك يتاح لها أن تقوم بالدور الذي اوكله الله اليها فتصنع للانسان وغيره من المخلوقات ما يحتاجونه من اغذية . **(وانزلنا من السماء ماء فانبتنا فيها من كل زوج كريم .)** سورة لقمان / ١٠

وهذا الماء يدخل بصورة اساسية في بنية الكائن الحي ، فالخلية الحية يدخل في تركيبها الماء بنسبة كبيرة ، ويوجد الماء في الخلية على ثلاثة اشكال ، قسم منه يكون متحدا اتحادا كيميائيا في هيولى الخلية ، وقسم يكون منتشرا بجزيئاتها ، وقسم يكون موجودا فيها كما يوجد الماء في عيون الاسفنج .

ولن نتحدث عن عجائب الخلية ودقة صنعها وسر الحياة الكامن فيها ، والاخلاط السابحة في هيولاها ، ولا عن العناصر الداخلة في بنائها ونسبها ، فذلك وغيره يحتاج الى حديث طويل جدا كما يتطلب رسوما دقيقة ووسائل ايضاح متنوعة .

فتبارك الله القائل في كتابه الكريم **(وجعلنا من الماء كل شيء حي افلا يؤمنون)** . سورة الانبياء / ٢١ .

٢ ــ ان الانسان وهو كائن حي متميز جدا ــ مخلوق من الماء ابتداء ، ومعتمد على الماء في استمرار حياته ، واستخلاص غذائه ، وطرح فضلاته ، وبنية خلاياه ، وهو امر على جانب كبير من الدقة والابداع . والاتقان . وحين ننظر اليه النظرة المجهرية ، ونسير معه في مراحل تخليقه يتكشف عن اسرار رائعة وحقائق معقدة ودقيقة للغاية ، تبدو من خلالها يد القدرة الربانية الخفية كالشمس في ضيائها .

فقد اصبح معروفا ان الانسان ينبثق من بين خليتين . اولاهما : تتكون عند الرجل في الخصية . والثانية تتكون عند الانثى في المبيض ومن اجتماع هاتين الخليتين ينبثق عنهما خلية واحدة ، ماتلبث أن تنزل من القناة الواصلة من المبيض الى الرحم لتعلق بغشائه الداخلي الذي يكون قد استعد لاستقبال هذه الخلية وتغذيتها ، وان البيضة تاخذ خلية واحدة من خلايا النطفة التي تسبح فيها مئات الملايين من الخلايا . وتوصد الباب في وجه هذه الالوف المؤلفة من الخلايا المتسابقة السابحة في خضم النطفة عبر القناة الواصلة مابين الرحم والمبيض ، للظفر بتلقيح هذه البيضة .

٣ ــ ان الخليتين السابقتين تتصفان بصفات مجهرية هامة هي ان كلا منهما تحتوي على نصف مافي اسلافها من عناصر اصلية موجودة في النواة . وهذه العناصر تسمى الصبغيات ، وتكون ثابتة العدد لكل نوع من انواع المخلوقات ، وهي في الانسان ست واربعون صبغية . فيكون عدد الصبغيات الموجودة في الخلية المذكرة ثلاثا وعشرين ، ومثلها في الخلية المؤنثة .

وخلايا النطفة نوعان من حيث الصبغي الذي يحدد جنس الجنين ذكورة ، او انوثة . فبعضها يحوي من بين صبغياته الثلاث والعشرين على صبغية خاصة يرمز لها بالحرف(x) . بينما يحوي بعضها الاخر على صبغية اخرى يرمز لها بالحرف (y)

وكل بيضة تعطيها الانثى تحتوي على الصبغية (x) التي راينا لها نظيرا في قسم من خلايا النطفة ويتوقف تحديد جنس الجنين على الصبغية الموجودة في الخلية المذكرة التي تظفر بتلقيح البيضة ، فان كانت النطفة تحـــوي على الصبغية (x) كان الجنين انثى ، وان كانت تحوي على الصبغية (y) كان الجنين ذكرا لا محالة .

وبذلك ندرك ان تحديد جنس الجنين يعتمد اعتمادا كليا على الرجل ، وليس للمراة دور الا كدور الارض التي تنبت النبات الذي القيت فيها بذوره، فمن بذر شعيرا فانه لن يحصد قمحا ، كما ان الرجل الذي تصدر عنه نطفـة فيها الصبغية (x) لن يرزق ذكرا . وهنا نذكر اعجازا قرآنيا آخر اشار الى هذه الحقيقة بصورة واضحة لا تحتمل اللبس ، ذلك هو قول الله تعـــالى (**خلق الزوجين الذكر والانثى من نطفة اذا تمنى .**)

والنطفة لا تصدر الا عن الرجل ، كما ان الامناء عمل خاص بالرجل ايضا.

فهل يمكن ان يكون هذا الاعجاز العلمي صادرا عن انسان عاش في القرن السابع الميلادي كائنا من كان هذا الانسان ؟!!

اما الاثنان والعشرون زوجا الاخرى من صبغيات الخليتين ، المذكرة والمؤنثة ، فتختص بنقل الصفات الجسمية الارثية التي تتحدر الى الجنين من ابويه ، حاملة معها صفات ارثية جسمية وغير جسمية من مئات الاسلاف التي تتصل بكل من الابوين وصولا الى بداية الخليقة المتمثلة بابي البشر آدم ، وامهم حواء . وان كانت هذه الصفات لا تظهر لدى الجنين بشكل متساو من جميع اسلافه ، بل قد تطغى صفات احد الابوين على الاخر ، او احد الاسلاف ، وربما كان هذا السلف جده او جدته رقم مائة او اكثر او اقل لامه او لابيه ، بينما تتفاعل الصفات المتحدرة من مئات الاسلاف .

وهنا نسال اين تختبىء هذه الصفات والخصائص ونحن نتكلم عن خلية صغيرة لا تستطيع العين المجردة ان تراها الا اذا كبرت بضع مئات من المرات !!!

واين تختبىء كذلك تلك الازواج الثلاثة والعشرون في هيولى هذه الخلية؟!!

وليس هذا فحسب ، بل ان الرؤية المجهرية لهذه الصبغيات تضع امامنا عجيبة اخرى وهي ان كل صبغية تتالف من اجزاء صغيرة تشبه حبات الخرز ، وتتالف كل جزء من هذه الاجزاء من حبيبات تسمى الحبيبات الصباغية .

وتختلف الازواج الصبغية في الخلية الواحدة بعضها عن بعض ، ولكن كل زوج من الخلية المذكرة يقابله زوج في الخلية المؤنثة يماثله شكلا ، ويندمج الزوجان اندماجا تاما .

وتنقسم هذه الصبغيات في السلالات الاخيرة من الخلايا المذكرة والمؤنثة انقساما خاصا يؤدي الى تنصيفها ، وبذلك يكون كل من الحيوان المنوي ، والبيضة ، نصفي الصبغيات فاذا التقيا كان من اندماجهما اجتماع ست واربعين صبغية تؤلف في مجموعها صيغة الانسان الصبغية .

والصيغ الصبغية لدى المخلوقات الحية تنفي نفيا قاطعا مازعمه دارون من ان الانسان قد تطور عبر كائنات كثيرة ، وصل بعدها الى مرتبة القرد ، وبقفزة غامضة تحول هذا القرد الى انسان !! فقد ثبت بشكل قاطع انه من غير الممكن ان يغير كائن من الكائنات صيغته الصبغية عبر ملايين السنين .

وتشتمل كل صبغية على عدد متفاوت من المورثات (الجينات) وتنتقل كل صفة من الصفات على مالا يقل عن زوجين من المورثات (الجينات) احدهما موجود في صبغي احدى الخليتين المخصبتين ، يقابله زوج آخر في الخليـة المخصبة الثانية .

وتتركب المورثات كيميائيا من حمض نووي يرمز اليـــه بـ DNA تختبىء وراءه اسرار لم يكشف العلم منها الا القليل القليل ، وهذا القليل حير العلماء وما يزال . هذا الى جانب حموض نووية اخرى لها دورها الفعال في نشاة الانسان الاولى .

وهذا مايذكرنا بالاعجاز العلمي الذي تشير اليه الآية الكريمة : (**انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا**)

فكيف تسنى لمحمد بن عبد الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ان يعرف هذه الحقائق ، ويتحدث بها ، ويسبق التقدم العلمي بضعة عشر قرنا ؟ وهو الامي الذي لا يجادل في اميته الا احمق ضال .

ـ قلنا : ان الحوين يسبح مع عشرات الوف الالوف (الملايين) من امثاله في نطفة صغيرة ، فاي حجم ياخذه اذن هذا الحوين من هذا الماء ، والعين المجردة لا تستطيع ان تراه الا اذا كبر مئات المرات ، فاذا رايناه تحت المجهر فهو ذو راس مكوز ، مهيا لثقب غشاء البيضة وينفذ عبر الطبقة الاحية الى نواتها حيث تندمج الخليتان المذكرة والمؤنثة في خلية واحدة ينبثق عنها الجنين.

وفي هذا الاندماج تجتمع الازواج الصبغية كل زوج الى نظيره الذي يماثله تماما في الشكل ، بينما يقوم الزوج الثالث والعشرون في كل من الخليتين بالتلاقي

ليقوما بوظيفة تحديد هوية الجنين منذ اللحظة الاولى ذكرا ام انثى كما مر سابقا .

وقبل ان يصل هذا الحوين الى غايته يقطع رحلة صعبة ودقيقة جدا فهو بعد ان يدفق الى الرحم يخرج منه مسرعا مع عشرات الوف الالوف الاخرى (الملايين) من امثاله الى القرنات الواصلة بين الرحم والمبيض حيث تكون البيضة قد خرجت من المبيض وبدات رحلتها هي الاخرى في الطريق الى الرحم عبر تلك القناة التي تعد بالنسبة لها نفقا كبيرا . وفي هذه القناة تتسابق الخلايا المذكرة اليها ، وكل واحد مدفوع بحكم خلقه وتكوينه لى الوصول الى البيضة ليكون له السبق الى القاحها ليكون منهما الجنين المنتظر . وبما ان هذه القناة طويلة جدا (من ١٠ ــ ١٥ سم) اذا قيست الى حجم الخليتين ، فان الخلية المذكرة تكون مجهزة بعنق لولبي يساعد على الحركة ، كما تكون مجهزة بذيل يتصل بهذا العنق يضرب به الماء ليزيد في سرعته نحو البيضة قبل ان تموت لانها لا تحتفظ باستمرار الحياة فيها قبل التلقيح اكثر من يومين الا قليلا . فاذا وصلت الخلية الى البيضة افرزت خميرة خاصة (انزيما) يطرق باب البيضة ويقول لها هذا هو الفارس قد وصل ، منجزا الوعد ، وهو بانتظار الاذن له بالدخول . وترسل البيضة اليه اشارة مماثلة تاخذ بيد الوافد المنتظر الى مخروط الجذب حيث ينفتح الجدار ، ويؤذن للعشير بالدخول . ثم تحيط البيضة نفسها بجدار كتيم ، لا تستطيع الخلايا الاخرى القادمة في الطريق ان تتسلل الى داخلها ، وبذلك تنتهي رحلة مئات الوف الالوف الى بيداء مهلكة حيث تلقى حتفها جميعا بعد ان اجهدها السير واعياها الدخول الى الحصن المنيع .

ان هذا الحوين ، هو الذي يتالف من ثلاثة وعشرين زوجا صبغيا التي تحدثنا عنها آنفا ، فاين هي اذا مواضع هذا البناء الهائل المعقد ، رأس ، وعنق ، وذنب ، وقلنسوة للسباحة ، وازواج صبغية ونواة وحموض نووية ذات ادوار هامة ومختلفة في نشاة الجنين !!!!

ان الخلية الجديدة الناجمة عن تلاقح الخليتين الخارجتين (من بين الصلب والترائب) سوف تهبط الى الرحم عبر القناة ، وسوف يستغرق وصولها اليه حوالي عشرة ايام ، ولكن هذه الخلية لن تنتظر دورها حتى تصل الى الرحم ، بل ستبدا بالتنامي السريع ، وتبدا عملية تخلقها بالانقسام على طريقة السلسلة الهندسية : ٢ــ٤ــ٨ــ١٦ــ٣٢ــ٦٤ــ١٢٨ ...

وهكذا ينتج عدد ضخم من الخلايا دون ان يتغير حجم البيضة التي تقوم برحلة شهر العسل الى الرحم . فاذا وصلت اليها ، فان غشاء الرحم المخاطي

يكون قد استعد لاستقبالها ، ولكن الباب سيكون موصدا ، وهنا تاخذ الخلية المتنامية شكل ثمرة التوت ، وتمد هذه الخلايا ارجلا تعمل بقوة على فتح بوابة الرحم ، فاذا ما دخلت اغلق الباب ، حيث تقوم هذه الارجل بقضم جدار الرحم والعروق الدموية فينسكب الدم ليحيط بهذه العلقة الصغيرة . وهكذا تمتص هذه الارجل ماتحتاجه العلقة من الدم اللازم لتغذيتها .

وتبدا هذه الخلايا وظائفها فيقوم بعضها بتكوين نسج الانسان واجهزته واعضائه وتوضع الخارطة الاولى لتكوينه فيتخصص بعضها بتصميم الدماغ والنخاع الشوكي ومن بعضها الفقرات والعظام ، ومن بعضها عضلات الجسم . والعظام تتكون اولا ، ثم يليها العضلات التي تكسوها ، فتبارك الله القائل (فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ثم انشاناه خلقا آخر فتبارك الله احسن الخالقين) .

ثم تمضي عملية النمو خطوات اخرى، فطائفة من الخلايا تختص بالحواس، واخرى لجهاز الدوران ، وغيرها للهضم ، واخرى للجهاز التناسلي ، واخرى للجهاز البولي ، وهكذا ... بحيث تقوم كل مجموعة ببناء جهاز خاص وتعمل في تناسق مع المجموعات الاخرى بحيث ياخذ كل جهاز مكانه دون خلل ، ودون تغيير في المصور العام لهذا المخلوق الكريم ، فاليدان في مكانهما وكذلك العينان والانف والفم ... وفي الشهرين الاولين لا نكاد نميز هذه المضغة التي تاخذ طريقها نحو اتمام عملية الخلق ، عن مضغة اي حيوان آخر ، حتى الزواحف والطيور فاذا انتهى الشهران الاولان ونيفا بدانا نرى الشكل العام للانسان يتضح بصورة كاملة .

هذه الخلايا التي بدا تخلق الانسان منها هي التي اشار اليها القرآن الكريم بقوله تعالى : « ثم من مضغة مخلقة »

غير ان هناك خلايا اخرى تقوم بصنع الاجهزة اللازمة لحفظ المخلوق الجديد . فمن الغشاء المخاطي للرحم ينشا الغشاء الاول الذي يحيط بالمضغة من الخارج ويسمى الغشاء الساقط ، يليه غشاء ثان ويسمى السلى ومن جانب هذا الغلاف تنبثق المشيمة المجزة .

اما الغلاف الثالث الداخلي فيحيط بالجنين احاطة كاملة من وراء وسط مائي يعتبر وسطا مائعا يحيط بالجنين ليقيه مع الاغشية الثلاثة السابقة كل صدمة خارجية ويسمى العلم هذه الاغلفة الثلاثة بالساقط ، والكريوني ،

والامينوسي . وهذا مايذكرنا بقول الله تعالى : (**يخلقكم في بطون امهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث**) .

ترى ما حقيقة هذه الظلمات الثلاث ، هل هي الاغلفة الثلاثة السابقة ، ام ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة الاغشية الاخرى الله وحده يعلم مايريد ، ولكن اوليس في ذلك ذكرى لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد .

الا يذكرنا هذا بقول الله عز وجل « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق اولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد » .

وهذه المجموعات الخلوية التي قامت بصنع الاجهزة اللازمة لحفظ المخلوق دون أن تدخل في بنائه الخلقي كما دخلت الخلايا السابقة الذكر ، الا يذكرنا هذا مرة اخرى بقول الله عز وجل « **انا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الارحام مانشاء الى اجل مسمى** » .

اوليس هذا معجزة اكبر من معجزة تسيير الجبال ، وتفجير الينابيع وتكثير الطعام ، ومخاطبة الجماد ، وتسبيح الحصى ، وسلام الحجر ... !!!

ثم ماذا يحدث لهذا المخلوق الذي اصبح طوله حوالي ثلاثة سنتمترات ووزنه لا يزيد عن احد عشر غراما .

ان الطريقة السابقة في التغذية من الدم مباشرة ، لم تعد صالحة لهذا المخلوق الضعيف فتنشأ المشيمة ، وتتكامل ، وتشكل مضغة تخلص الدم من اقذاره وسمومه ، وتقدمه الى الجنين حسب حاجته ، وعلى التركيب الذي يناسب بنيته وحاجته الى النمو ، واكتمال التخلق ، ثم ينبثق عن المشيمة حبل السرة الذي يضم شريانين للتغذية بالدم المناسب الخارج من المشيمة ، ووريدا يحمل الدم المثقل بالفضلات والسموم كرة ثانية الى الام عبر السرة . وهكذا تسير عملية النمو يوما فيوما وساعة فساعة فاذا انتهى الشهر الثالث يصبح وزنه ٥٥ غراما ، وطوله عشرة سنتمترات .

وفي نهاية الشهر الرابع يصبح طوله عشرين سنتمترا ووزنه ١٧٠ غراما ، ويتشكل الجهاز الهضمي ، ويبدأ الكبد بالعمل ، ولكن الجنين يبدو متجعد الجلد اصلع قبيح المنظر مهما كان مقدرا له ان يكون جميلا ، وفي نهاية الشهر الخامس يصبح طوله ٣٠ سنتمترا ووزنه ٦٥٠ غ ويظهر شعر الراس وتبدأ

فقد الجلد بالعمل ، ولكن الاجفان مازالت ملتصقة والاظافر في الاصابع غير موجودة ، والجلد مازال مجعدا ، والخصيتان موجودتين في الظهر . فاذا جاء الشهر الثامن يكون طوله قد اصبح خمسة واربعين سنتمترا ، ووزنه ٢٥٠٠ غراما والاجفان قد انفصلت ، وتجعدات الجلد قد اختفت ، واصبح لونه جميلا وهاجرت الخصيتان من الظهر الى الصفن . وفي الشهر التاسع يكون قد شارف على التمام واصبح قاب قوسين او ادنى من استقبال الهواء والنور بعد عملية المخاض ، وقد بلغ وزنه حوالي ٣٥٠٠ غ وطوله حوالي ٥٠ سنتمترا وتكون كافة الاجهزة قد اكتملت واصبح قادرا على تصفية دمه برئتيه وامتصاص غذائه بامعائه ، وطرح فضلاته من سحره .

عند ذلك تصدر الاوامر بطريق الهرمونات الى مفاصل الحوض لترتخي وتفسح الطريق لمرور الوافد الجديد وفي ساعة الصفر تصدر الاوامر من الغدة النخامية بايقاف الهرمونات التي تحفظ توازن الطفل في الرحم ، فيضطرب وضع الجنين ، ويبدأ المخاض .

وتصدر الاوامر للفص الخلفي من النخامه عند الحامل بافراز هرمون يقوم بتقليص عضلات الرحم ثم ينبثق جيب الماء فيبدأ خروجه بدأ من رأسه في عملية ماتلبث بعدها الام ان تصحو باسمة لوليدها الجديد وتضمه لديها وملء صدرها الحنان وعاطفة الامومة ، وملء صدرها الغذاء الملائم لهذا المولود ، وما تلبث الآلام ان تزول شيئا فشيئا وتسترد الام صحتها المنهكة بعد الحمل والوضع ، ويعود الرحم الى وضعه قبل الحمل اصغر مما كان عليه ساعة الولادة بالفين وخمسمائة مرة .

فاي جهاز هذا الرحم الذي استطاع ان يتسع لهذا المولود وحواشيه بهذا القدر ثم يعود الى وضعه الطبيعي وحجمه المعهود ويدخل فترة نقاهة حتى اذا ابل من التعب والاعياء عاد يتهيأ لاستقبال مضغة اخرى وليحتضن علقة جديدة .

فتبارك الله احسن الخالقين . وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون .